بين يوميات"دولاكروا" ولوحاته
قراءة في رسالة "بن جلون"

أ.د. سليمة لوكام
جامعة سوق أهراس

الملخص:

في عقد الثلاثينيات من القرن التاسع عشر قام الفنان الفرنسي الشهير "أوجين دولاكروا" برحلة إلى المغرب والجزائر أثمرت لوحات فنيّة بديعة أثارت انتباه المثقفين والنقاد (بودلير، تيوفل غوتييه..) و"يوميات" بعنوان رحلة إلى المغرب Voyage au Maroc فيها وصف لما وقعت عليه عينه من مشاهدات، وتسجيل لما عايشه من أحداث .

وفي مطلع الألفية الثالثة، يصدر الأديب المغربي "الطاهر بن جلون"كتابا بعنوان" رسالة إلى "دولاكروا" حاول فيه – من خلال عرض بعض لوحات الرسّام وبعض المقاطع من اليوميات – تقديم قراءة خاصة وفق رؤية معاصرة للعالم والأشياء.

أروم في هذا المقال نشر بقعة ضوء على الجوانب التي ركّز عليها "بن جلون" في قراءته للخطابين، مستعينة في ذلك باليوميّات وباللوحات، ساعية إلى استجلاء هوامش التقاطع والتوازي بين الخطاب البصري التشكيلي والخطاب اللغوي المكتوب، وأثر ذلك في تشكيل الرؤية وفي وضوحها.

تقديم:

في مختتم الكتاب/ الرسالة التي وجّهها الأديب والروائي المغربي "الطاهر بن جلون" إلى الفنان الرسام الفرنسي "أوجين دولاكروا" Eugène Delacroix كتب "بن جلون" معلّقا على ما احتفظ به التاريخ من المهمّة الدبلوماسية* التي زار "دولاكروا" بمقتضاها المغرب: "لا ندري ما الذي تمّ في هذه المهمّة، لكن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

التاريخ احتفظ بأنّ فنانا في سن الرابعة والثلاثين قد حطّ الرّحال بمدينة طنجة ذات يوم من شهر جانفي من سنة 1932، وجال في بعض أنحاء المغرب حاملا في يده أقلاما ودفاتر."[1]

وبالفعل كانت تلك الدفاتر والأقلام قد نقلت عن المغرب وأهله وطبيعته رسوما وتصميمات للوحات تشكيلية (Des croquis) بجزئيات مغرقة في التفصيل، ممعنة في الثراء، صيّرها "دولاكروا" فيما بعد أعمالا فنيّة لقيت رواجا كبيرا، بل إنّها كانت علامات فارقة في تاريخ الفن التشكيلي المعاصر.

وفي مقابل تلك الرسوم والتخطيطات، كان "دولاكروا" يكتب يومياته، وقد عُرف الجزء الخاص بهذه الرحلة باسم "رحلة إلى المغرب" Voyage a Maroc، يقول الناشران في المقدّمة التي صدّرا بها كتاب "اليوميات": "لقد كانت هذه الرحلة الشهيرة إلى المغرب... حدثا أساسيا في المسار الفني للأستاذ Le maitre.

ولسنا ندري إن كانت الرّحلة قد استمدّت شهرتها من اللوحات، أم أنّ اللوحات اتّكأت في نجاحها ورواجها على يوميات "دولاكروا" ودفاتره، أو ما عُرف بمراسلاته التي كان يبعث بها في أثناء إقامته بالمغرب إلى أصدقائه من الأدباء والفنانين والمثقفين، أيّهما كان أكثر تفصيلا وأبعد أثرا: اليوميات أم الرسوم؟ وبشكل آخر، هل غلب المرئي على المكتوب عند "دولاكروا"؟ هل تقوّى على المشاهَد البصري بالكتابة التي كانت نقطة انطلاق بالنسبة إليه قبل إنجاز لوحاته/ صوره؟ أم أنّه أدرك قصور المكتوب عن الإحاطة بجلال الموقف وعمق التجربة؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

في قراءة/ رسالة "الطاهر بن جلون" محاولة للإجابة، ومخاتلة في التناول، فهو يؤثر مخاطبته عبر اللغة بتأثير من اللغة، فيقول في مفتتح رسالته: "لقد وضعني ذلك النص البديع الذي اختصك به "شارل بودلير" في موقف صعب... أظنّ أنّه بوسعي أن أُعيدك إلى المغرب ثانية بسحر الكلمة."[3]

كتابة وشعر ولوحات:

وبتقصّي أنحاء النظر في هذا الخطاب الافتتاحي، تتبدّى لنا رغبة ملحّة لدى "بن جلون" في تنزيل المكتوب المقروء مُتَنَزَّلا يؤهّله لأن يضاهي البصري المرئيّ، فهو من زاوية يُعلي من شأن نص "بودلير"، ويراهن على سحر اللغة في ردّ الأمور إلى نصابها وفي المقابل يرى المرئي التشكيلي حقيقا بأن يتقاطع مع المكتوب، وأن يتجاور مع التخييلي، بل يحسن به أن ينضفر معه ويتواشج، ولذلك نلفيه يسرّب عددا غير قليل من لوحات "دولاكروا" ذات النسب بزيارته إلى المغرب، وينبري للاضطلاع بمهمات التوضيح والتعليل والتصويب والدفاع متى استدعى المقام ذلك، فهو في موضع التوضيح مثلا يقرن الكتابة بالمشاهدة، بالمرئيّ، ولا يرى مبرّرا لمفاضلة أو تخيير: "أكتب إليك وأنا أشاهد لوحة "استراحة الفرسان العرب قريبا من طنجة Halte des cavaliers Arabes près de Tanger" لقد جُعلت غلافا لكتاب خُصّص للحديث عنك، إنّني أرى فيها الطبيعةَ وأصباغها البديعة، والخيول وأسرجتها، أرى الفارسين اللذين افترشا الأرض. هذا هو المغرب الحقيقي رغم مرور الزمن."[4] إنّها الكتابة في مواجهة الصورة، ولكن لحدّ الآن لا مجال للمفاضلة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

في موضع آخر، يصدع "بن جلون" بما يؤرّقه صراحة ودون مواربة: "قرأتُ يومياتك، وأعجبتُ بصراحتك، ووجاهة ملاحظاتك، لقد كانت التعليقات موجزة، وأمّا التفصيلات فأُلتُقطت بدقة. فمن يقرأها يتخيّل رسومك. قد تبدو لمن لا يعرفك واقعا تحت تأثير أحكام مسبقة، وهذا ليس صحيحا."[5]

إنّ التدبّر في هذه النبرة الواثقة الفاصلة فيما هو موصول بين التطابق الحاصل بين المكتوب والمرئي التشكيلي يجرّنا إلى طرح سؤال أوّلي هو: أيكون "بن جلون" مستعدا في سبيل كسب رهانه للمضيّ بعيدا إلى الحدّ الذي يُلغي فيه ذلك الوسم الذي نُعِت به "دولاكروا" وغيره من مُجايليه، وهو الكولونيالي المتعالي الموالي للتوجه الاستعماري، والمؤيد لطروحاته خاصّة فيما يتعلّق بالمبدأ التبريري، بل إنّ بعض الدارسين، ومنهم "عبد الفتاح كيليطو"، يرون بأنّ "دولاكروا مخيّب للظنّ: تعجّ يوميات رحلته بالأحكام المسبقة، بينما تخلو رسومه منها، وهذا لغز ما زال يُحيّر الباحثين."[6]

ليس بوسعنا الإجابة عن هذا السؤال ما لم نستكمل قراءة الرسالة التي يصرّ فيها "بن جلون" على النبش في أغوار ذات الفنان، وتقحّم مجاهل الإبداع فيه، وتحسّس مواطن غلبة الكلمة المكتوبة أو المقروءة، على التشكيل البصري، فبعد أن ساوى بين إدراك المكتوب المقروء وبين تخيّل البصري التشكيلي « On vous lit et on imagine vos dessins » عمد إلى مناقشة "دولاكروا" في موقفه من الكتابة نفسها "أستطيع أن أقول في نصوصك ما قلتَه أنت في الكتابة (وهي ملاحظة كنت قد استوحيتَها من يوميات "ميريميه") والتي يقول فيها: "إنّني

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

أرغب في القول إنّ أيّ مكتوب بما تحمله كلمة مكتوب من دلالات خاصة منها الاستنتاج والتفكير لا يحوي أصلا."[7]

ذكّر "بن جلون" صاحب "رحلة إلى المغرب" بعلاقته بالكتابة وبالكتّاب أيضا، فهو يتبنى آراءهم، ويستقي من رؤاهم ما يعينه على التقريب بين عالمي المكتوب والتشكيلي عنده، ما يُصيّر أمر الكتابة لديه تنويعا على فنّه التشكيلي، لا مفارَقة له.

فهو يذكّره تارة، بكبار الكتّاب في القرن التاسع عشر الذين صهروا الكتابة الأدبية بالفن التشكيلي في ذوب الإبداع، وصقلوا تجربتهم باستيحاء عوالم الشرق السحرية، ومثاله في ذلك "فيكتور هيجو"Victor Hugo: "في مقدمة كتابه "شرقيات" 1828، يُقرّ فيكتور هيجو قائلا: "إنّ الألوان الشرقية قد أتت إليّ طواعية لتُلوّن كلّ أفكاري، وكلّ أحلام يقظتي."[8]

ويثبّت تارة أخرى حكما أطلقه أحد كبار الشعراء ممّن عكفوا على قراءة فنّ "دولاكروا" وأجالوا النظر في خصوصية تجربته، ويتعلّق الأمر هنا بالشاعر الفرنسي "بودلير" Beaudelaire الذي ينقل عنه "بن جلون" قائلا: "إذا كنت، كما وصفك "بودلير" رساما– شاعرا مثل ما كان "شوبان"Chopin موسيقيا– شاعرا، فإنّ علاقتك بالواقع مؤسّسة على ذلك التركيب اللامتناهي للكائنات والأشياء."[9]

كما حضر الشاعر الفرنسي الشهير "تيوفيل غوتييه" Théophile Gautier بتلك "العبارة الجميلة التي صاغها بخصوص لوحة "فانتازيا أمام باب مكناس" Fantasia devant la porte de Mèknesو"تدريبات عسكرية للمغاربة" Exercices militaires des marocains(1848): يجب الإسراع لمشاهدة هذه اللوحات لأنّ الخيول فيها قد تمضي للعَدْو."[10]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

يتحصّل لدينا ممّا سبق أنّ استدعاء "بن جلون" لهذه الشخصيات الأدبية التي اتّخذت المكتوب المقروء سبيلا تتوسّله في مواجهة أعمال "دولاكروا" لم يكن لغرض تقديم الشهادة فحسب، كما لم يكن لتقريب المكتوب من المرئي، وإنّما لإقامة الدليل على أنّ لوحات" دولاكروا" لم تكن لتبلغ ما بلغته من الدقة والفن والجمال لو لم تستعن بالكتابة لا بالذاكرة: "كان الشكّ يخامرك في قدرة ذاكرتك إلى الحدّ الذي جعلك تضيف إلى تخطيطاتك وتصميماتك كلمات ترصد بها التفاصيل التي تمثل أمامك، لقد كنت تمارس الشعر دون أن تدرك ذلك..."[11] وهنا يورد "بن جلون" بعض اللوحات التي تجاور فيها الرسم واللغة، وتقاطع فيها المقروء والتشكيلي، وخاصة لوحة "ألبوم شمال أفريقيا وإسبانيا Album de l'Afrique du nord et de l'espagne الموجودة بمتحف اللوفر بباريس".

وإن كان أظهر ما يُستصفى من هذا الخطاب هو ذلك السعي الحثيث لدى "بن جلون" لاستجلاء طبيعة الصلة التي توثّقت بين الفنان التشكيلي "دولاكروا" وبين فعل الكتابة وتأثير الكتّاب وحضور المكتوب في لوحاته، فإنّ ما شفّ عنه – أي الخطاب- يوقفنا على تلك الرغبة الملحّة في إعادة "دولاكروا" إلى المغرب بسحر الكلمة – كما صرّح- بالكتابة، وهو إذ يفعل ذلك،فإنّهُ يُزاوج بين قراءة ليوميات الفنان ومشاهدة للوحاته.

وبالعودة إلى تلك اللوحات، أي إلى جانب التشكيلي البصري، فإنّ "بن جلون" يرحّل المكتوب إلى التشكيلي، يقول عن لوحة "سعدة وبريسيديا بن شيمول" Saada et precidi Benchimol: "لقد دخلت في أوساط العائلات اليهودية في

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

طنجة، وانبهرت بجمال النساء اللواتي وجدتهنّ رائعات إلى الدرجة التي جعلتك تشبههن بـ (لآلىء عدن)... واليوم، وأنا أُشاهد لوحة "سعدة وبريسيديا بن شيمول" صرت أعي معنى (لؤلؤة عدن)."[12]

لا يَنِي بَاثُّ هذه الرسالة يذكّر الفنان بما كتب في يومياته حتّى وهو يشاهد ما رسم، يُعلي من شأن المكتوب وهو يقف أمام التشكيلي، بل إنّه يُشهره دليلا لتقرير مرئيّ غدا حقيقة بفعل الكلمة، ولا يكتفي بذلك بل يمضي إلى تدبيج الحواشي على حواف تلك اللوحات التي يراها تُبدي حاجة للكلمات خارج اليوميات أو على هامشها، كأنّ "بن جلون" لم يقنع باليوميات للتسلّل إلى عمق اللوحات، أراد أن يستضيء بـ "سحر الكلمة وبيانها" في مواجهة إحجام اللوحة عن الإفضاء، وانشغالها بتفاصيل الأشياء. فاللوحة المشار إليها آنفا أثارت في "بن جلون" رغبة في وضعها في إطارها الذي هي خليقة به، فجمال الفتاتين هو سجنهما، و"لا يُسمح له وهو الرومي النصراني أن يقترب منه"13، كما أنّه يجد الفرصة سانحة ليصحّح له ما بلغه حول فكرة تحريم الرسم والفن التشكيلي في الإسلام، ويفصّل في علاقة الوئام التي تربط بين مسلمي المغرب ويهوده، ويسهب في الحديث عن الموقف من المرأة عند هؤلاء وأولئك، عن التعليم والثقافة في هذا البلد في تلك المرحلة، عن طبيعة أهل المغرب مدافعا عن مواقفهم من الأجانب، مفسّرا بعض سلوكاتهم (المغاربة يخشون السلطة لكنهم لا يحترمونها) مشيدا بأصالتهم (عدم وقوع المغرب تحت سلطة العثمانيين ومجيء الفرنسيين في شكل حماية لا في شكل استعمار جعل المغرب أكثر أصالة من جاريْه تونس والجزائر)، مؤيدا الفنان في بعض آرائه، متعاطفا معه (عدم علمه ببيع الهدية "الفرس" التي أهداها إياه سلطان المغرب) مبرّرا بعض أحكامه

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

القاسية (وصف المغاربة بالجشع La voracité des maures كان بسبب تعكّر مزاجه في يوم الجمعة ذاك، فضلا عن المرض وقضاء ليلة سيئة).

وفي كلّ مرّة، كان يذكّر متلقي رسالته بما كتبه في يومياته، بما قاله في مراسلاته، بما أفضى به إلى أصدقائه والمقربين منه.

ولعلّ أقوى ما في خطاب "اليوميات" خواتمها التي نقلت انطباعا صادما لمركزية غربية تمتلك العلم والحضارة ولكنّها لا تصل إلى حقيقة الجمال والسعادة، وشفّت عن اكتشاف مريع لبعد المسافة بين قيم الأنا وقيم الآخر، بين بساطة الآخر وتعقيد الأنا، وهو ما حدا بالفنان إلى التصريح: "يحمد المغربي الله على قوته السيء وعلى معطفه الرثّ، بل أكثر من ذلك، إنّه يجد نفسه سعيدا جدا لحصوله عليهما... إنّ جهلهم يصنع هدوءهم وسعادتهم، وهل استنفدنا نحن في حدود ذواتنا ما يمكن لحضارة أكثر تقدّما أن تنتجه؟ إنّهم أقرب إلى الطبيعة في كلّ أشكالها: في ألبستهم، في شكل أحذيتهم. وهكذا، فإنّ الجمال حاضر في كلّ ما يفعلون، وها نحن أولاء، بمشدّاتنا، بأحذيتنا الضيقة، بجراباتنا السخيفة، نثير الشفقة،إنّ شكر النّعم ينتقم من عِلمنا."[14]

وقد أورد "بن جلون" هذا المقطع في كتابه، وعلّق عليه لكنّ تعليقه كان مجلّلا بالرّضى، محاطا بغلالة من الفخر بالرجل الذي قرّظ بلده وأهلها، ولم يجد نفسه متحرّجا إلّا من نعت "الجهل" الذي وُسم به أهل بلده في تلك المرحلة، فمضى إلى التوضيح أنّ ذلك لا يعدّ جهلا، إنّما هي أميّة، "وأن المغاربة الذين رآهم في تلك الفترة يعتزون بثقافتهم، وبأنهم ورثة حضارة تقليدية ترسّخت منذ قرون. إنّ الأمر يتعلّق بالإسلام الذي أدخله العرب إلى البلد." [15]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

الوثيقة اللوحة:

بدا "بن جلون" معنيّا بلوحات "دولاكروا" في بعدها الأنثروبولوجي العامّ، منشغلا بما أحدثته تلك الرسوم من تمثيلات وتمثّلات، لكن ليس بالقدر الذي عُني فيه "دولاكروا" نفسه بتجلّيّات ذلك البعد في مظاهر بعينها مثل المرأة اليهودية بوجه خاص (يهوديّة ببدلة حفلة، طنجة، عروس يهوديّة في طنجة)، وطقوس اليهود في الأفراح (حفل زفاف يهوديّ في المغرب)، ومشاهد الفروسية التي يقرنها بالمغاربة (مغربي يسرج حصانه، وفارس مغربي وهو يعطي إشارة و فارس يقطع معبرا وتدريبات عسكرية مغربية...) والبورتريهات التي خصصّها لعلية القوم منهم مثل "مولاي عبد الرحمان سلطان المغرب" والوزير "أمين بياس" (على الأقلّ بالنسبة إلى اللوحات المرفقة بالكتاب).

ولعلّ المقام يقتضي منّا العودة إلى صاحب "اليوميات" نُسائله من خلالها عن هذا المكتوب الذي ثَوَت في تضاعيفه تمثيلات بما هي طريقة في النظر إلى الذات وإلى الآخرين، ونَسْتَكنِهُ ما في أطوائه –أي المكتوب– من تقاطعات.

تنفتح "اليوميّات" على خطاب "رحليّ" يرتكز على الوصف كما هو شأن كتابة الرحلة في الغالب، ولكنّه وصف ذو خصوصية، إنّه وصف فنّان رسّام، دبلوماسيّ أوربيّ فرنسيّ، قدم ضمن بعثة تستطلع الوضع في بلد عربي مسلم من شمال أفريقيا (المغرب)، في الثّلث الأول من القرن التاسع عشر، بعد أن تمّ لبلاده غزو بلد مجاور في المنطقة نفسها(الجزائر)، ولذلك وقع هذا الوصف في منطقة جذب بين عين مبدعة مفتونة بالتقاط الدقيق والتفصيلي في الأمكنة، ونقل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

الألوان والأصباغ في الأشياء، ورصد حركات الأشخاص ووضعياتهم وأمزجتهم لتُشكّل من كلّ ذلك خطابا فنّيا مرئيّا، وبين عين مُوَثّقة تسجّل الواقع، وتُحصي أوجهه، وتتبّع حيثياته، لتقدّم وثيقة أو شهادة حضارية، وهنا ينبغي الاحتراز، وكما يقول "تيري أيجلتون": "ليست ثمّة وثيقة من وثائق الحضارة دون أن تكون في الوقت نفسه سجّلا من سجلات البربرية." [16]

وأيّا كان الشأن، فقد استهلّ "دولاكروا" "يوميات رحلة إلى المغرب" بعد تحديد التاريخ والمكان (طنجة في 26 جانفي) والمقام (عند الباشا) بعبارات مقتضبة كأنّها برقيات، فيها كثير من التحفّظ: "دخول القصر: فَيْلَقُ الحراسة في الساحة، الواجهة، زقاق بين سُورَيْن. في نهاية الزقاق ما يشبه القبة، رجال جالسون تظهر عليهم سمرة مَشوبة بزرقة قليلا."[17]

وعلى الرغم من احتراز هذه التصريح الاستفتاحي الدالّ على تحفّظ مُبَرَّر بِحُكْم غربة الزائر في المكان أو بحكم غرابة المكان نفسه بالنسبة إليه، فإنّه والمقاطع التي تلته يُنبئ عن ثنائية الجذب في التعامل، وهنا يحسن بنا استدعاء "بن جلون" إلى هذه القراءة لا بغرض توريطه، وإنّما للاستضاءة برأيه فيما يرتبط بسحر الكلمة La magie du verbe، بالكتابة، بالشعر عند "دولاكروا" في مقابل الصورة، في مواجهة المرئيّ التشكيلي، ذلك أنّ المقاطع التالية تؤكّد بما لا يجعل مجالا للشكّ أنّ الفنّان قد وقع تحت سحر المرئيّ الوقائعي، فمضى يرسم لوحاته في يومياته، كان الرسم مؤجّلا واللغة حاضرة، وهنا أودّ أن أُشير إلى أنّ "دولاكروا" قد نبّه إلى الإعراض الذي لقي به المغاربة الرسم "أُحاول بالتدريج أن أتأقلم مع عادات البلد بشكل يمكنني من رسم بعض وجوه هؤلاء الأهالي جيّدا وبطريقة مريحة. إنّ لديهم أحكاما مسبقة كثيرة ضدّ هذا الفن الجميل؛ الرسم،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

لكنّ إعطاء بعض القطع النقدية لبعض هؤلاء أو أولئك كفيل بإرضاء تحرّجهم."[18] ولعلّ في هذا أيضا ما جعل الفنّان يحجم قليلا عن الرسم، ويستعيض عنه بالكتابة، يؤجّل الصورة اللوحة إلى حين عودته إلى بلده ما دامت اللغة قادرة، وما دامت المخَيِّلة ثرّية.

وبالعودة إلى المقاطع التي نقيم بها الدليل على ما نذهب إليه من استجارة باللغة، وتظلّل بمرساتها من وهج إنكار الصورة وتجريمها، فإنّه يَحسُنُ بنا أن نضع نصب أعيننا مهمّة التمثيل التي كان على "دولاكروا" أن يُؤدّيها لا بحكم طبيعته فنّانا، بل بحكم وظيفته وصِفَةِ زيارته، والتمثيل كما يرى إدوارد سعيد "مهمة شاقة ومعقّدة وبالغة الصعوبة."[19]

كتب "دولاكروا" في بداية يومياته بعد المقطع الاستهلالي: "وصلتُ إلى السطح، ثلاث نوافذ بدَرَابْزين من خشب، في الجانب باب على الطراز المغربي منه يدخل الجنود والخدم. من الأمام صفّ من الجنود تحت عريش سلكي: قفطان أبيض، تنوّع في أشكال تصفيف الشعر، قبّعة حادّة دون عمامة، خاصة في الأعلى فوق السطح. رجل وسيم بكُمّيْن أخضرين. العَبْد المولّد الذي يسكب الشاي، بقفطان أصفر، وبُرْنُس شُدَّ من الخلف، وعمامة. يرتدي العجوز الذي قدّم الوردة حايكا وقفطانا أزرق داكنا. الباشا بحايكيْن اثنين أو قلنسوتين إضافة إلى البُرْنُس. الثلاثة على فراش أبيض، مع وسادة مربّعة طويلة مغطّاة... مدير الجمارك، متكّئا على مرفقه، ذراعه عارية، وفيما أذكر: حايك واسع على الرأس عليه عمامة بيضاء، تتدلىّ على صدره قطعة مربوطة من قماش. لا يضع قلنسوة، ركبتان متصالبتان... كان السقف فقط مطليّا... الحديقة مقسمة إلى ممرّات مغطاة بعريش سلكي. شجر برتقال مغطى بثمار

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

كبيرة، ثمار سقطت على الأرض. مُحاط بأسوار عالية. عندما التفتُّ إلى دَرَج جميل لاحظت رجلا جميلا يتبعنا، بدا مُحتقِرا لنا... أمعنت النظر في يهودية تشبه مدام... زنجيّ لفت "مورناي" انتباهي إليه، بدا أنّه يلبس الحايك بطريقة خاصة... رأيت المسجد بشكل جانبيّ وأنا ذاهب إلى أحد القناصل." أحد الأهالي يغسل رجليه في النافورة التي توجد في وسطه، وآخر يغتسل وقد جلس القرفصاء على الحافة... مشهد الخيول التي تتقاتل. لقد انتصبا وتقاتلا واجتهدا في ذلك ما جعلني أرتعش من أجل هؤلاء السادة، لكن، حقيقة كان ذلك مدهشا بالنسبة إلى فن الرسم."[20]

وقبل أن نحاول تفكيك هذا الخطاب اللساني المصَوْرَن، يحسن بنا أن نعود إلى "بن جلون" الذي عمد إلى تلخيص رحلة "دولاكروا" بعبارة دالّة قائلا: "لقد التقيتَ ببلد، برجال وخيول. لقد كنت على يقين بأنّك موجود في عالم المآثر والأحلام. إن المغرب الذي رَسَمْتَ لا يمكن أن يكون إلّا ذلك الذي زرْتَ."[21]

ويبدو أنّ "بن جلون" قد استطاع بهذه العبارة تحديدا أن يُساوي بين ما رآه "دولاكروا" وبين ما رسمه، وذلك بعد أن مزج بين الكتابة عنده وبين الشعر، وأبان عن حاجة الرسم إليهما وتقاطعه معهما، ولكنّ تلك المساواة لا ينبغي بأيّ حال من الأحوال أن تتأسّس على غير الخطاب الإبداعي في شكليه المكتوب والبصري المرئيّ من جهة، وعلى مرجعيّ وقائعيّ يُستضاء به في جزئية "المغرب الذي تمّ رسمه في لوحات ليس سوى المغرب الذي تمّت زيارته" من جهة أخرى .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

إن معاينة ما ورد في النص المقبوس من يوميات "دولاكروا" يمكّننا من الوقوف على جملة من الحيثيات: لم يكن "دولاكروا" فيما كتبه على عجلة من أمره، ولم يكن ملاحَقا فيه بنظرات الإنكار والاستهجان، ولكنّه ورد في صيغ برقيّة: رصد، التقاط خاطف، وصف مقتضب، تركيز على مواد الأشياء، وألوان الأشخاص وأشكالهم، وألبستهم، ووضعيات جلوسهم، اهتمام بالمكان وهندسته الظاهرة وتفصيلاته الآنية العارضة "شجر برتقال مغطّى بثمار كبيرة، ثمار سقطت على الأرض."بدا ما كتبه رسوما أولية وتصميمات بدئية، لم يصرف "دولاكروا" عنايته إلى شيء بعينه، إلى شخص بعينه، إلى منظر بعينه، كان يلتقط كلّ ما تقع عليه عينه، لا يعلّق إلّا في القليل النادر، كان حريصا على وجود مسافة بينه وبين ما يرى، ولم يكن معنيّا بما يسمع، هل هو حاجز اللغة؟ لم ترد في كتاباته عبارة تدلّ على قول أو حوار أو تبادل كلام، أم أنّه فضّل أن يلُفَّ الصمت الكتابة إلى حين تَحَوُّلها لوحات، ولعلّ ما ختم به كلامه عن تقاتل الخيول ما يُثبّت ذلك "لقد كان ذلك حقيقة مدهشا بالنسبة إلى فنّ الرسم"، وقد تحوّل هذا المشهد فعلا لوحة هي من أشهر لوحاته "لقاء الفرسان المغاربة"Rencontre de cavalire maures لم نعثر على "دولاكروا" شاعرا إلّا في القليل النادر، على الرغم من العلاقة الحاصلة بين الشعر والرسم،كان المرجعيّ واحدا، والمتخيّل فاعلا فيهما سويّا، والجماليّ غاية يتطلّعان إلى بلوغها، ويتحسّسان وقعها، لكنّ ما كتبه "دولاكروا" فيما ظهر منه لم يكن شعرا، ولم يسعَ إلى ذلك فيما نحسب، كانت الكتابة عنده سلاحا ضدّ النسيان وسندا للذاكرة، وملاذا من ضياع التفاصيل، بل إنّه وهو يكتب يشكّك في صحّة ما يذكر، أو لعلّها لعبة يُخاتل بها ويراوغ حين يقول: "إذا كنت أذكر ذلك" Si je

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

m'en souviens كانت ممارسة لحريّة وجدها في بلد وضع أهله فن الرسم في قفص الاتهام والإثم، كانت تعويضا عن حاجات مرجأة، وأحلام مؤجلة تُنجَز فيما بعد لوحات ورسوما تلاقي نجاحا، وتصنع شهرة لصاحبها، وهو الأمر الذي حدث فعلا، و لعلّها تستطيل فتغدو شعرا، وكما يقول أحد الدارسين: "لا يقف الفن التشكيلي موقفا مضادّا من المعرفة التحليلية، لكنّ امتداده يدعو إلى إعادة تشكيله في عالم شعريّ"[22]

بدا "دولاكروا" معنيّا بالزوايا التي ينظر من خلالها للأشياءَ وجِهَاتِ إدراكه لها، ففي معرض وصفه للمسجد يُسجّل ملاحظة "رأيت بشكلي جانبيّ" de coté Vu كما في "عندما التفتُّ إلى دَرَج جميل لاحظت رجلا جميلا يتبعنا" Remarqué en retournant وكذا في وصفه للزنجي الذي انتبه إليه بإيعاز من السفير "مورناي" « Nègre, que Mornay m'a fait remarquer » ولا يخفى على كلّ ذي تبصّر ما لهذه الإشارات من دلالات، فبَيْنَ النظر والملاحظة والانتباه بإيعاز ما يفسح المجال لما يمكن أن يتحوّل إلى رسم أو لوحة، وما يبقى إشارة عابرة ضمن إطار عام.م يكن في وكدنا تتبّع هذه الجزئية فيما يصل ما كتبه "دولاكروا" بما رسمه لو لم يسجّل مؤكّدا رؤيته للمرأة اليهودية وإمعانه النظر إليها بشكل جيّد "أمعنت النظر في يهودية تشبه مدام..."

« Vu une Juive très bien ressemblant à Mme R… »

ولم نكن لنولي هذا الجانب كبير اهتمام لو لم نعثر على إشارات عابرة أو مسهبة، في مواضع أخرى من اليوميات، على ما يعضّد هذا التوجّه في الكتابة عند "دولاكروا" والذي تبدّى قويّا فيما بعد في اختيار رسم لوحات بعينها دون غيرها، ومن هذه الإشارات ما ورد في حديثه عمّا سمّاه "حفل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

الزفاف اليهوديّ" الذي استوحى منه لوحته البديعة الموجودة بمتحف اللوفر بعنوان "حفل زفاف يهودي في المغرب".Noce juive dans le Maroc حضر "دولاكروا" الحفلة، ونقل كلّ تفاصيل مشاهداته، كلّ ما وقعت عليه عينه، أو ما أراد أن تقع عليه، لا أثر لاهتمام بصوت، ولا إنصات لغناء، ولا احتفاء بإيقاع، باختصار اشتغلت العين وعُطّلت الأذن، غطّى سحر المرئيّ على المسموع، أُستُجير بالمكتوب، ولنقرأ بعض ما ورد في هذا المقطع: "كان المغاربة واليهود في المدخل. الموسيقيان. آلة الكمان، إصبع الإبهام مشدود إلى الأعلى، أسفل اليد الأخرى معتّم كثيرا، فاتح اللون من الخلف، الحايك على الرأس، شفاف في بعض أجزائه، أكمام بيضاء... جراب القيثارة على ركبة العازف، لون داكن على مستوى الحزام، صدار أحمر، ... إلى جانب الكمان، امرأة يهودية جميلة، صدار وأكمام وذهب ومعّلقات، يظهر نصفها على الباب والنصف الآخر على الحائط. وإلى الأمام قليلا، امرأة أخرى أكبر سنّا ترتدي كثيرا من البياض الذي يكاد يغطي كامل جسمها. انعكاس كبير للظلال، ثمة بياض في الظلال. من الأمام يبرز عمود في عتمة. على الشمال نساء مصفوفات كأنّهنّ أُصُص أزهار. بمناديلهن الصفراء، يغلب عليهن الأبيض والذهب. من الأمام، أطفال على الأرض.

إلى جانب عازف القيثارة، يهوديّ يضرب على الدفّ. يظهر وجهه في الظلّ، يُخفي جانبا من يد عازف القيثارة... أمامه اليهوديّ الذي يحمل صحنا، كانت ركبتاه متصالبتين... في الأعلى، أطلّت النساء اليهوديات، على اليسار، ظهرت إحداهنّ حاسرة الرأس، شديدة السّمرة..."[23]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

وعلى الرغم من الوقوف المطوّل نسبيا لـ"دولاكروا" لكتابة هذا المشهد في يومياته، وعلى الرغم من وجود نصوص توضيحية كتبها هذا الرّسام (وهو الأمر الذي أشار إليه "بول فلات" جامع اليوميات، في تعليقه على لوحة حفل زفاف في المغرب)، فإنّ "بن جلون" لم يَعُدْ إلى المكتوب، وفضّل أن يواجه المرئيّ التشكيليّ، أن يشاهد فيكتب، أن يرى المرئيّ ليُعيد إنتاجه مكتوبا من زاوية أخرى.

أطال "بن جلون" وقوفه أمام اللوحة، تجاهل مكتوب "دولاكروا" الذي بدا خطاطة في غاية الدقّة، ورسما بالكلمات في غاية البلاغة بإيجازه، بمسكوته، بإبطاله حاسة السمع واحتفائه بالإبصار، بقدرته الفائقة على إخراس إيقاع الموسيقى، بإسكاته صوت الأغاني.

إذن وقف "بن جلون" وهذا بعض ممّا خاطب به دولاكروا مبديا رأيه في اللوحة: "ثلاث وثلاثون شخصية جُمعت في فضاء ضيّق، في بيت تقليديّ. تؤدي كلّ واحدة فيه دورها، لا تشابه بين بدلة وأُخرى، وكما يقول "ستندال": "إن التفصيلات تصنع الأصالة." تكشف هذه المراكمة في التفاصيل عن عفوية وعن قوّةَ نَفَس... كنتَ تخشى أن تَضيعَ التفاصيل منك، أو أن تغيّر مكانها أو حركتها... من المؤكّد أنّها مُستوحاة، ومن روح الحفلة "الحقيقية" التي كنتم أحد المدعوين إليها، ولكنّكم جعلتم منها شيئا آخر، رسما يتنفّس الحياة، غَدَا حركة، غناءً، وشعرا... في أقصى اللوحة شخص، رجل يتكئ على الحائط في وضعية منفردة، يبدو وكأنّه شاهد، أو متفرّج مشغول الخاطر. لا يشارك في الحفلة. هل أجرؤ على الاعتقاد بأنّ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

هذا الشخص هو أنت؟ وهكذا تكون قد تنكّرتَ في زيّ أحد الأعيان المغاربة أيّا كان دينه، وتسلّلتَ إلى اللوحة حتى ترى ما نرى."[24]

أليس بوسعنا ووسع "بن جلون" أن نسأل: لِمَ لَمْ يعبّر "دولاكروا" عن رأيه في الحفلة، عن استمتاعه بها أو ضجره منها؟ عن رأيه في الموسيقى التي كانت تنبعث من تلك الآلات؟ عن أصحاب الحفلة؟ ما راق له فيها وما لم يَرُق. لقد بدا جالسا ينظر و يُشاهد بشكل جانبيّ، فـ"أظهر بدقة غزارة الملامح وتعابير الوجوه وحركات الأيدي وإيماءات الرؤوس وتثنّي الأجساد في لحظة ردود فعلهم ذلك على إيقاع الموسيقى، عاكسا لحظة الأوج لانغمارهم فيها."[25]

حَضَر "دولاكروا" الحفلة التي دُعي إليها لا ليُشارك القومَ فرحَهم، ولا ليستجلي انفعالاتهم، ولكن ليُثري مخزونه، ويقترب من الغريب والجميل فيُبهِر ويَسحَر. أيمكننا التسليم بأنّ دولاكروا لم يكن معنيّا لا بالمغرب بوصفه أرضا جديدة غريبة مختلفة، ولا بأهلها وبخصوصيتهم، بقدر عنايته بما يمكن أن يُضيف إلى تجربته و يُحدث فيها الغريب والمبهر.

وبهذا يكون المأخذ الذي يُسجّل على "دولاكروا" ليس ما كتبه عن المغاربة، وإنّما إحجامه عن الكتابة عنهم بالشكل الذي رآه منهم وسمعه وعاشه، واكتفاؤه برصد التفاصيل والتقاط المشاهد التي يعلم أنّها ستُحدِث الدهشة وتخلق السحريّ لما تُحوّلها ريشته أعمالا فنية تشكيلية.

وصفوة القول، ينبغي تجويد النظر في وجاهة ما راج عن قسوة خطاب "يوميات رحلة إلى المغرب" الذي اختطّه قلم "دولاكروا" في مقابل اللوحات التي أبدعتها ريشته، وإعمال الفكر في دقّة ما كاد أن ينعقد بشأنه إجماع كثير من الدارسين

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

حول المفارقة الحاصلة بين المكتوب الكولونيالي والمرئيّ الإنساني، ذلك أنّ الأمر محفوف بكثير من السياقات والحيثيات التي يحسن بنا قراءة المكتوب والمرئي في ضوئها، وأهمّها عزوف "دولاكروا" عن نشر "اليوميات" وإيداعها عند من يتوسّم فيه الأمانة (تفصيل كلّ ذلك موجود في مقدمة الناشر، وفي التصدير الذي كتبه المسؤول عن اليوميات تعليقا وشرحا وإضافة "بول بلات") فضلا عن أنّ اليوميات في الأعمّ الأغلب منها مشاهد وتفاصيل وأوصاف تقع كلّها في خانة المرئيّ، وما خرج عن ذلك لا يَعدو أن يكون إشارات تقصر حينا وتطول حينا آخر، ولكنّها ليست بالتأكيد أحكاما كالتي صدرت عن بعض أولئك الذين زاروا الجزائر في القرن التاسع عشر وأظهروا انطلاقا من خلال ما كتبوه وأشهروه نظرةً استعلائية كولونيالية*، وتبريرا للاستيلاء عليها وتحقيرا للأهالي، لسبب بسيط وهو أنّ المغرب لم يَكن آنذاك لا مستعمَرا ولا واقعا تحت حماية، ولذلك غلب سحر التشكيل والولوع بالتفاصيل والشغف بالألوان والوله بالظلال والأنوار على "دولاكروا" فوُسم المكتوب والمخطوط بميسمه، ونُزّل المرئي في المكتوب الذي لم يكن للنشر بل لإعادة التشكيل حتّى يستوي إبداعا، وهكذا كان.

وغاية ما ننتهي إليه، هو أنّ "بن جلون" حاول في مواضع عدّة أن يشرح ويوضّح ويبرّر ما لم يفهمه "دولاكروا" أو ما لم يعرفه، أو ما لم يستطع إدراكه، وأن يوافقه في بعض ما ذهب إليه، أن يقرأه كتابة تارة ولوحة تارة أخرى، ولكنّ السؤال الذي يظلّ يلحّ المتابع ويستفزّ المتلقّي هو: لو تلقّى "دولاكروا" في حينها رسالة كالتي بعث إليه بها "بن جلون" هل كان ذلك سيغيّر شيئا في لوحاته؟ أكان من الممكن أن يؤثّر مكتوب "بن جلون" في مرئيّ "دولاكروا"؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

الهوامش:

جاء دولاكروا إلى الجزائر ضمن بعثة دبلوماسية أوفدتها الحكومة الفرنسية إلى المغرب، وقد رافق "دولاكروا" فيها الكونت "دو مورناي" سفير فرنسا لدى سلطان المغرب "مولاي عبد الرحمان"، وكان الهدف منها جسّ نبض المغاربة فيما يتصل بغزو الجزائر.

1- -Tahar Benjelloun, Lettre à Delacroix, Gallimard, Paris, 2010, p 93

2- -Le journal de Eugène Delacroix, 1823- 1850,Tome 1, Précédée d'une étude sur le maitre par Paul Flat, Portraits et fac-simile, Librairie Plon,2ème édition,1893, Paris ,p 7.

3- Tahar Benjelloun, Lettre à Delacroix, p 14.

4- Lettre à Delacroix, p 14

5- Lettre à Delacroix, p 15.

6- عبد الفتاح كيليطو، أتكلّم جميع اللغات لكن بالعربية، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2013، ص 71.

7- Lettre à Delacroix, p 15.

8- Lettre à Delacroix, p24.

9- Lettre à Delacroix, p 14

10- Lettre à Delacroix, p 47.

11- Lettre à Delacroix, p33.

12- Lettre à Delacroix, p 28.

13- Lettre à Delacroix, p 28 -.30

14- Le journal de Delacroix, Tome 1, p253.

15- Lettre à Delacroix, p 82

16- تيري إيجليتون، في كتابه النظرية الأدبية – مقدمة–

17- Le journal de Delacroix Tome 1, p 145

18- Le journal de Delacroix Tome 1, p155.

19- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، تر. كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، 1997، ص 148.

20- Le journal de Delacroix Tome 1, p146,147,148,149.

21- Lettre à Delacroix, p 93.

22- Robert de Rosa,Poèsie-peinture,Hachette , Paris, 1986,p32

23 - Le journal de Delacroix Tome 1,p 154,155,156.

24 – Lettre à Delacroix, p52- 53.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

25- زينات بيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، عالم المعرفة، 157، الكويت، ص 229.

*انظر دراستنا بعنوان "الجزائر في كتابات جي دو موباسان: الأرض والعرق والدين. المنشورة في مجلة العربي الكويتية عدد 642 ماي 2012.

الملحق: أهمّ لوحات دولاكروا عن المغرب

Saada et precidia Benchimol"سعدة وبريسيديا بن شيمول"

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

"حفل زفاف يهودي في المغرب" La Noce juive au Maroc

سلطان المغرب محاطا بحرسه le sultan du Maroc entouré de sa garde

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

Fantasia devant la porte de Mèknes فانتازيا أمام باب مكناس

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484

تدريبات عسكرية للمغاربة Exercices militaires des marocains

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/484